

القراء الأعزاء: نستقبل اقتراحاتكم و مساهماتكم التي من شأنها إشاعة الخير بين ربوع الأمة على البريد الإلكتروني:

alwaeiq8@gmail.com



رمضان وإخوة يوسف

حينما تتبع النفوس نداء فطرتها السوية وتعي مراد مولاها -ومراده حياتها خيرها وصلاحها- حياة ترتقي بها آفاق السمو الروحي فتسمو بفعالها تمشى بين الناس والقلوب هناك، تحلق نحو سمو أخلاقي وعلو إنساني لا يتأتى إلا بترويض النفوس وانتظامها ضمن قوافل الراغبين فيما أعده الله للسائرين إليه.

وأيام الله وشهوره المختارة مطيتهم وسبيلهم، تهل وتقبل فتصافحها الوجوه بلقيا المشتاق، وتعانقها القلوب عناق الولهان الظمآن، وتذعن الأبدان لنداء يحدوها لترك عادات درجت عليها شهور.

وحينما تتفاعل النفوس المؤمنة مع أيام الله وتخالط بشاشتها قلوبهم وتنتظم أقدامهم على طريق مراد ربهم منهم، تصفو النفوس وتسمو القلوب وتنصاع الأبدان، وعندها يرهف الحس ويحلق في آفاق سمو روحي، ويفتح الله عليه بمعان لا تأتي إلا بالمجاهدة والمصابرة والمكابدة.

الإمام ابن الجوزي صاحب سبق متفرد في مجال الرقائق والنصح والوعظ، وأثرى بمؤلفات حصرها يتسع ومجالها يتشعب وطرقها تتنوع، ومنها مؤلفه «بستان الواعظين ورياض السامعين»، والذي يتميز ببساطة أسلوبه ورقيق عباراته وعظمة بيانه وتنسيق مجالسه.

وفيما رتب الإمام ابن الجوزي في هذا المؤلف كلاما عن رمضان شهر القرآن، كان فيه من المعاني التي حلق في آفاقها، فكون منه تشبيها جميلا رائعا يضاف إلى جملة ما تفرد به عبر تصنيفاته الكثيرة الواسعة.

ربط ابن الجوزي بين شهر رمضان وباقي شهور السنة الإحدى عشر الباقية وبين يوسف عليه السلام وإخوته الأحد عشر، فيقول:

قيل الشهور الإثنى عشر كمثل أولاد يعقوب عليه السلام- وشهر رمضان بين الشهور كيوسف عليه السلام بين إخوته، فكما أن يوسف أحب الأولاد إلى يعقوب، كذلك رمضان أحب الشهور إلى علام الغيوب.

ويشرع ابن الجوزي بعد ذلك في بيان أوجه التشابه الذي حمله على أن يسوق هذا التشبيه:

فقد كان في يوسف من الحلم والعفو ما غمر جفاهم حين قال: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ﴾ (يوسف:٩٢)، فذلك شهر رمضان فيه من الرأفة والبركات والخيرات والعتق من النار والغفران من الملك القهار ما يغلب جميع الشهور وما اكتسبنا فيه من الآثام والأوزار.

ويذهب ابن الجوزي إلى سوق الإشارات التي تقوي وتظهر تشبيهه فيقول: جاء إخوة يوسف معتمدين عليه في سد الخلل وإزاحة العلل، بعد أن كانوا أصحاب خطايا وزلل، فأحسن لهم الإنزال وأصلح لهم الأحوال وبلغهم غاية الآمال وأطعمهم من الجوع وأذن لهم في الرجوع، وقال لفتيانه اجعلوا بضاعتهم في رحالهم لعلهم يعرفونها، فسد الواحد خلل أحد عشر.. كذلك شهر رمضان واحد والشهور أحد عشر.

يرى رمضان بين الشهور شامة، فالشهور الأخرى رغم أنها أحد عشر شهرا، إلا أن رمضان من بينها هو الذي حباه الله بالكثير عن إخوانه من الشهور بما أهله أن يزيل غشاوة القلوب، ومنها يواصل ابن الجوزي ما يسميه نكتة آخرى في هذا السياق، ربطه بين رمضان وباقي شهور السنة ويوسف عليه السلام وإخوته أبناء يعقوب عليه السلام في إشارة أخرى فيقول: كان ليعقوب أحد عشر ولدا ذكورا وبين يديه حاضرين ينظر إليهم ويطلع على أحوالهم وما يبدو من أفعالهم، ولم يرتد بصره بشيء من ثيابهم، وارتد بقميصه بصيرا، وصار بصره منيرا وقويا بعد الضعف، بصيرا بعد العمى، فكذلك المذنب العاصي إذا شم روائح رمضان وجلس فيه مع المذكرين وقرأ القرآن وصحبهم بشرط الإسلام والإيمان وترك الغيبة وقول البهتان؛ يصير إن شاء الله مغفورا له بعد ما كان عاصيا وقريبا، بعد أن كان قاصيا ينظر بقلبه بعد العمى، ويسعد بقربه بعد الشقا، ويقابل بالرحمة بعد السخط، ويرزق بلا مؤونة ولا تعب، ويوفق طول حياته، ويرفق بقبض روحه عند الوفاة، ويفضل بالمغفرة عند اللقاء ويحظى في الجنان بدرجات الالتقاء.

رحم الله السلف الصالح، وأورثنا بصيرتهم النافذة وحسهم المرهف المتقد المتفاعل مع الأيام والأحداث.

ياسر عرفة توفيق